من العام ٢٠٠٠ إلى الوقت الراهن، ملامح اتجاهات معاصرة

د. خالد عصفور

ترنّح الاقتصاد المصري على نحو دراماتيكي منذ العام ٢٠٠٠. واتّسم الأداء الاقتصادي بالتباطؤ، منذ العام المذكور وحتّى العام ٢٠٠٥. وطرأ تحسّن ملحوظ بحلول هذا العام الأخير بلغ ذروته في العام ٢٠٠٧، إلى أن تسبّب الركود العالمي بتباطؤ الاقتصاد المحلّي على مدى الأعوام القليلة اللاحقة. وأدّت الانتفاضة المصريّة إلى تراجع اقتصادي دراماتيكي، منذ العام ٢٠١١ لغاية الوقت الراهن. وتزامن الترنّح الاقتصادي مع أزمة في الطاقة وقد أدّى الأمر إلى ابتعاد المعماريين عن مسألة السجال ما بين الهويّة المحلّيّة والحداثة. ويزداد سعي المعماريين وراء القيمة الحقيقيّة في التصميم، وذلك عبر تخلّيهم عن إضافة العناصر أو الأشكال النحتيّة المحاكية «للموضة» إلى واجهات المباني، كما عبر تراجع اهتمامهم في صناعة الصورة المعمارية الكلاسيكيّة المصطنعة. عوضًا عن ذلك يسعى المعماريّون إلى الحلول الخضراء التي تؤمّن زَفَه العيش وفي الوقت نفسه توفّر في الطاقة. وتُظهر المشاريع التالية كيف بدأ التغيّر في مزاج المعماريين يتجسّد على أرض الواقع. وهي تُظهر اتجاهات جديدة في العمارة ستزداد رسوخًا في السنوات المقبلة.

يُعيد مشروع منتجع «فور سيزونز» (شرم الشيخ، ٢٠٠٣) تعريف المفهوم المحلّي في تصميم الموقع الطبيعي لمنتجع خمس نجوم، لكن مع اعتماد معايير الاستدامة. فعلى الرغم من الموقع كثير التلال، زرع طارق بشير ٢٤٠٠ نخلة ١٢٠٠ شجرة على مساحة تسعة هكتارات، وذلك كي يخلق بيئة أشبه بواحة، تؤمّن نطاقًا داخليًا مريحًا لزوّار المنتجع. وعلى نقيض القواعد المحليّة، فإن عشرين في المئة فقط من المساحة الخضراء مغطّاة بالنجيلة، فيما ظلّلت المساحة المتبقّية أعشابًا طبيعيّة، ما قلّل من استهلاك مياه الريّ على نحو ملحوظ.

والهويّة الموسومة بالاستدامة، لا الاستحارات المُقلّدة، مثّلت العنصر الأبرز في حديقة الأزهر التي صمّمها ماهر ستينو (القاهرة، ٢٠٠٤). ففي كلّ موضع من الحديقة التي تبلغ مساحتها ثلاثين هكتارًا، يستمتع الزوّار بالفناءات الحديثة المفتوحة، والتي تبدو كغرف معيشة في الهواء الطلق، تظلّلها الأشجار. وتصميم الحديقة، كما قربها من القاهرة القديمة، يضعان الزوّار في تماس مباشر مع الطبيعة، فيتلقّون إيحاءات التراث من موقع يشعرهم بالمعاصرة.

واعتمد السعي لإحياء التراث اتجاهًا جديدًا مع عماد فريد ورامز عزمي اللذين صمّما فندق البابنشال في قرية شالي التي تعود إلى ثمانمئة عام (واحة سيوا، ٢٠٠٥). فقد كيّفا خمسة منازل قديمة كي تُصبح فندقًا بأربع عشرة غرفة تحيط بفناء. ويمكن لزوّار الفندق حيثما تواجدوا فيه ملاحظة الاختفاء التدريجي للجدران لتمتزج مع بيوت شالي المهدّمة. وشجّع هذا الدمج السكان المحليين على إحياء تقاليدهم الضائعة بعد أن التمسوا الفائدة الاقتصاديّة لمشروع الفندق.

وظهر توجّه جديد نحو دمج تراث معماري ذي صبغة مناخية صالحة في عمل محمّد عوض. إذ قام عوض بدمج العديد من التقاليد المتوسّطيّة في تصميمه لفيلا فهمي (الإسكندريّة، ٢٠٠٧). فتجاورت الأعمدة الثقيلة ذات الشرفات المتدرجة، التي تذكّر بمعبد حتشابسوت، في الجانب الأيمن من الفيلا. واستحضر السقف المقوّس في الجانب الأيسر من الفيلا تقاليد البناء الرومانيّة. ويقوم في الوسط فناء متوسّطي حديث، يصل بين تقليدين من العمارة الإسكندرانيّة المستدامة. وتقوم خلف الفناء ردهة استقبال بسقف مزدوج القشرة من زجاج مزدوج يسمح بتهوية أفضل وإنارة معتدلة للداخل.

وسعى عمل رائد لعبد الحليم عبد الحليم وساساكي أسوسييتس إلى خلق مخطط بينيّ لحرم جامعي يُقلّل أعباء الطاقة بمعدّل ٤٠ في المئة. فقد ارتأوا تحوير مناخ الموقع في الحرم الجديد للجامعة الأميركيّة (القاهرة، ٢٠٠٧) من خلال وصل فناءات متعدّدة الأحجام عبر الممرّات، وذلك لبثّ تيّارات الهواء المنعش في الفراغات الداخليّة. طُبّق هذا في التصميم الذي وضعه عبد الحليم لمبنى العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وعزّزت تصاميم الفناءات المتّصلة ثقافة الفنون الليبراليّة في الجامعة الأميركيّة في القاهرة. إذ وفاقًا لهذه الفلسفة، يقترح التبادل الحرّ للمعرفة بين كلّيات الجامعة، أنماط اجتماع مختلفة. وتساهم الفناءات المتّصلة عبر تشكيلات متنوّعة من النور والظلال، في تشجيع الطلاب على الخروج من الصفوف والتفاعل، والتنقّل بسهولة بين الكلّيات.

وحرص ليغوريتا على تحقيق أجواء حياة طلابيّة معاصرة عبر استخدامه نموذجًا تاريخيًا، كما يظهر في تصميمه لمساكن الطلاب في الجامعة الأميركيّة (القاهرة، ٢٠٠٧). فنسّق الشقق مستلهمًا البنية التكوينيّة لمدن القرون الوسطى، حيث ينشأ من الفراغات العامّة الكبيرة فراغات عامّة أصغر. والانتقال التدريجي هذا يحبّذه الطلّاب الذين يعيشون في الحرم الجامعي كونه يشجّع التكتّلات الاجتماعيّة فيما يصون خصوصيّة الأحياز. ويُفضّل الطلاب الذين يعيشون في الحرم هذه الفراغات الصغيرة المفعمة بالحميميّة والألفة. استوعب ليغوريتا هذه النزعات وزاد غرف جلوس صغيرة إضافيّة في الطبقة الأرضيّة، تُطلّ على الفضاءات الصغيرة، فتحتضن الأجواء الودية.

وشكّل تثقيف المجتمع المحلّي في إعادة الوصل مع تقاليده من دون التخلّي عن مطامح التحديث هدفًا رئيسًا لرمسيس نصحي الذي صمّم مركزًا للزوّار في محميّة وادي الجمال الوطنيّة (مرسى علم، ٢٠٠٩). ويتجنب أهل المنطقة في الممارسات العمرانيّة استخدام مواد البناء التقليديّة لصالح المواد المستوردة وغير المستدامة، نظرًا لربط الأخيرة بالحداثة. فقام نصحي بالتوفيق بين المواد التقليديّة والحديثة، فجعل كتلة المبنى من جدران الحجر والأعمدة الحاملة، والسطح من ألواح من ضلوع النخل المتناسقة، يعلوه سقف ثانٍ من صفائح معدنيّة متموّجة. وقد ألهم هذا المزيج من المواد الحديثة والمحلّيّة السكّان في المنطقة، إذ لاحظوا أنّ هذه التوليفة الحديثة لا تقدّم شكلًا مرغوبًا وحسب، بل أنّها تُحسّن الجودة البيئية للفراغات بفضل نظام السقف المزدوج.

ويُظهر تصميم فيلا الهرم (الجيزة، قيد الإنشاء) لشهيرة فهمي رفضًا للحداثة الراكدة التي يعبّر عنها الأسلوب الجامد للفيلا النمطيّة. وأعطى الموقع المواجه للأهرام فهمي أفكارًا لمُخطّط غير تقليديّ. قاعة الاستقبال الرئيسية في الطابق العلوي بدل أن تكون في الطابق الأرضي وذلك للتمتّع بإطلالة فريدة على الأهرامات من الأعلى. وينقسم المنزل إلى حيّزين، فيمكن للحيّز الأيسر الذي يضمّ غرفة الاستقبال الرئيسة أن يدور قليلًا فيحظى بالمشهد كاملًا. وتمثّل الحلّ غير التقليديّ الآخر بالممر المنحدر الذي يقود إلى قاعة الاستقبال في الأعلى، فيجعل من الصعود إلى رؤية الأهرامات مشهداً احتفالياً كبيراً.

بات بلوغ تصنيف «ليبد» (الريادة في تصميمات الطاقة والبيئة) هدفًا في الممارسات المعماريّة بمصر التي ظهرت خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة. وللمجموعة الاستشاريّة المصريّة (إيي سي جي) ومصرف «كريديت أغريكول» رؤية لتصميم مركز رئيسي للأخير (القاهرة، قيد الإنشاء) بتصميم مستدام متقن. والمصرف المذكور من المحبّذين الأقوياء «للعمليات المصرفيّة الخضراء» ويساند ممارسات تدوير الطاقة ومشاريع الحفاظ عليها. ويتمتّع المبنى الرئيس للمصرف في القاهرة بواجهة من الزجاج المزدوج وبمُخطط رفيع على شكل ملتوٍ ليُتيح الإنارة الطبيعيّة والإطلالة الخارجية. وثمّة قدرة للمبنى على استحواذ الهواء الطبيعي بنسبة تفوق المعدّل المعتاد بثلاثين في المئة. كما هناك أجهزة لاقطة ترصد معدّلات ثاني أوكسيد الكربون، وأخرى ترصد أعداد شاغلي المبنى كي تضبط مقادير الهواء والنور. ويعتمد التكييف على مبرّدات امتصاصيّة تستهلك ٣٠ وات/الساعة، بدل الاستهلاك الاعتيادي الذي يبلغ ٧٠٠ وات/الساعة. وبلغت معدّلات توفير الطاقة بفضل هذه المواصفات، أقلّ بـ ٦٠ في المئة من إجمالي الأعباء. لهذا فإنّه من غير المفاجئ أن يكون المبنى في طريقه ليغدو أوّل حامل للشهادة البلاتينية في الريادة بتصميمات الطاقة والبيئة في مصر.

ويتولّى تصميم أراتا إيسوزاكي لمبنى الجامعة اليابانيّة – المصريّة للعلوم والتكنولوجيا (الإسكندريّة، قيد الإنشاء) قضايا القيم البيئيّة ومهمّة خلق حضور بصريّ مؤثّر غايته تثقيف العامّة في أمور الاستدامة. وغطّى إيسوزاكي الحرم الجامعي بسقف مقاسه ٥٥٠ × ٥٠٠ متر مستخدمًا غشاءً تكنولوجيًا مؤلّفًا من خلايا فوتوفلطية، ومظلّات متحرّكة، وفلاتر مُنفِذة. وتكمن فلسفة جرينة خلف إعادة التصميم الجريء لهذا السقف. ويُعدّ المُخطط العام مزيجًا من المباني الأكاديميّة ومساكن الطلاب. وهذا التصميم يسم الحرم الجامعي بمزيد من الحيويّة والإنتاجيّة، كونه يستلهم ثقافة الشارع المصري النشطة، ولا يهدف إلى بناء حرم أكاديميّ مغلق.

عبر هذه المشاريع الرياديّة العشرة، تتعامل الممارسات المعماريّة في مصر مع الصعوبات الراهنة التي تواجهها. مظاهرٌ كالنقص في المتطلّبات الاقتصاديّة الأوّليّة ومخزون الطاقة الثابت والعملات الأجنبيّة، معطوفة على التضخّم الحاد، كلّها ساهمت في تقديم أصحاب المشاريع لقيمة المال على مثاليات صناعة الصورة. وفي هذه الحالة، تُفضّل المواقع التي تُتيح الراحة البصريّة مع التقليل من استهلاك المياه. والمشاريع التي تطرح معايير جديدة هي تلك التي تُثقّف السكّان المحليين في قيمة عمارتهم التقليديّة، وترشدهم إلى الطرق الأمثل في الاستفادة منها ضمن السياق المعاصر. وتُحقّق هذه المشاريع ممارسات احترافيّة رفيعة من خلال سعيها للحصول على تصنيف «ليبد» الرائدة في تصميمات الطاقة والبيئة، كما من خلال إظهارها المقادير المنخفضة في استهلاكها للطاقة. لقد أعادت هذه المشاريع النظر في التصميم النمطي، وذلك لصالح تصاميم أكثر استجابة لبيئتها المحيطة. تأخذ هذه المشاريع العادات الاجتماعيّة المعاصرة وتدعمها في الأفكار التقليديّة. هذه هي المشاريع التي ستحدّد وجهة العمارة المصريّة خلال السنوات القادمة.

ترجمه عن الإنكليزيّة فادي طفيلي